تمثلات الصحراء في رو اية الأزمة

(قراءة في رو ايتي بوح الرجل القادم من الظلام وبحثا عن آمال الغبريني لإبراهيم سعدي)

Representations of the desert in the novel of the crisis

(reading in the novels of "Confession of the man coming from darkness" and "searching for Amel GHUBRINI" by Ibrahim Saadi)

أمال بن جيان *

د/ محمد بلعزوقي ♣

تاريخ الإرسال:2020/08/15	تاريخ القبول:2020/10/21	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

انفتَحت روايةُ الأزْمة أو المِحْنَة الجزائرية على فضاءِ الصَّحْراء، الَّذِي رأى فيه الرِّوائيُّون الجزائريون فُسْحَةَ أمل وأمان تفِرّ إليه الشخصيات لِتنْجُوَ بِجِلْدهَا من الموتِ الذي يُحاصِرها في الشَّمَال، وها هُو الرِّوَائي "إبراهيم سعدي" ينقُلُ الحَكْيَ والأفعال إلَى هذا الفَضَاءِ العَاري في رِوايَتَيْه "بوح الرّجل القادمِ من الظَّلام" و"بَحثا عنْ آمال الغبريني"، ويجعل منه مَلاذًا لأبطاله، يفرّون إليه بحْثا عن تحقيق ذواتِهم تارة، وعن الأمان تارةً أخرى، كلّ ذلك يَحدث تحت وطْأَة الإرْهاب الغاشم الذي جثمَ على قلوب الجزائريين لسَنَوات عديدة، سنواتٌ أقلُّ ما يُقَال عنها أنَّها سنوات الجمْر.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الصحراء، الأزمة، العنف، الإرهاب.

Abstract:

It opened a novel crisis or the Algerian ordeal on the desert space, which Novelists Algerian expanse of hope he saw and safely flee to the characters to survive the flogging of death, which is encircled in the north, and here is a novelist, "Ibrahim SAADI" conveys storytelling and acts to this naked space in his novels "Confession of the man coming from darkness" and "searching

المؤلف المرسل: أمال بن جيان "ea.bendjiane@univ-blida2.dz

* "مخبر الدراسات الأدبية والنقدية-جامعة البليدة 2 ea.bendjiane@unvi-blida2.dz

♣ "مخبر الدراسات الأدبية والنقدية-جامعة البليدة 2 " BELAZOUGUI81m@yahoo.fr

for Amel GHUBRINI", and making it a haven for his heroes, who flee to him in search of self-fulfillment at times, and safety at other times.

key words: *The novel, the desert, the crisis.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

. مقدمة:

لا شك أن الصحراء قد فرضت نفسها على الإبداع الأدبي العربي، فاحتلت مساحة واسعة من المتون السردية ضاربة بذلك مقولة أن القص والحكي لا ينهض إلا في الفضاء المديني، ذلك الفضاء الذي ما انفك يصنع فجائع الإنسان العربي وهزائمه، ويرمي به في لجج من الحزن والموت والدمار، فلم يجد بدا من الأوبة إلى مسقطه، إلى ماضيه، إلى موطنه الأول، "الصحراء" بكل ما تحمله من سحر وغرابة، من شساعة ورحابة، من تراث، من أساطير، من رهبة وعزلة .... كل ذلك فتح ذراعيه ليحتضن الإنسان -الروائي – العربي مرة أخرى كذلك الوطن الذي يحتضن أبناءه بعد طول هجرة وغياب.

وقد تنوعت نظرة الروائيين العرب إلى الصحراء وتعددت مشاربهم، فقد اتخذت بعض الأعمال الروائية من الصحراء مسرحا وحيدا لأحداثها، منه تنطلق، وفيه تنتهي، كروايات " عبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني ورجاء عالم" .... وهذا ما فعله الروائي الجزائري " إبراهيم سعدي" أيضا في روايته "بحثا عن آمال الغبريني"، إلا أنه في روايته " بوح الرجل القادم من الظلام"، حاول المزج بين فضاءي المدينة والصحراء، وإن كان النصيب الأكبر لفضاء الصحراء؛ إذ يرتبط حاضر الحكي بها، أما الماضي فبالمدينة، وفي الروايتين مثلت الصحراء ملاذا لأبطاله، يفرون إليها بحثا عن تحقيق ذواتهم تارة، وبحثا عمن يحبون، وعن الأمان تارة أخرى؛ كل ذلك دفعنا إلى محاولة الإجابة عن الإشكالية التالية: هل اقتصرت رؤية الروائي "إبراهيم سعدي" للصحراء على أنها مجرد ملاذ لشخصياته من الموت المترصد بهم في الشمال أم أن مساهمتها في تشكيل الخطاب الروائي كانت أبعد من ذلك بكثير؟.

2. الصحراء وموضوعة الأزمة

تشربت العديد من الأعمال الروائية الجزائرية من معين الأزمة أو المحنة الجزائرية أثناء وبعد العشرية السوداء، فالرواية سليلة الواقع، ترصد تحولاته وتواكب التطورات المجتمعية الكبرى، فمن قساوة الثورة إلى استبداد الحاكم، ثم فشل الاختيارات الاقتصادية الليبرالية، كلها محطات عاشتها الرواية الجزائرية بكل تفاصيلها، ولكن يبدو أن المرحلة الأخيرة (العشرية السوداء) كانت أكثر خيبة وانكسارا، بعد انفجار بركان الدماء ودخول الجزائر دوامة العنف والصراع طوال حقبة التسعينات، إثر انتفاضة أكتوبر 1988، وصعود الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ما ساهم في انبثاق كتابة روائية جديدة انخرطت بدورها في تلك المعركة ضد الإرهاب، «إنها مرحلة الوعي وإعادة استقراء الواقع والاصغاء إلى مختلف الانكسارات النفسية والاجتماعية وحتى السياسية وإعادة صياغتها فنيا»1، ونتيجة لذلك «بدأت في الصدور تدريجيا نصوص روائية ذات طعم حريف، ورؤيا صادمة، وتفاصيل جهنمية، شكلت بعد ذلك نوعا روائيا قائم الذات في مسار الرواية الجزائرية؛ يمكن وسمه ب: سرديات العنف والمنفى »2.

وكثيرا ما اتخذت هذه الروايات من المدينة فضاء لأحداثها، تصور واقع الموت والدمار والخراب الذي طال المدينة في ظل الإرهاب، ولم تتناول الكثير من تلك النصوص -في حدود علمنا -فضاء الصحراء، إلا بعض الروايات كرواية " تيميمون" لرشيد بوجدرة، الذي اتخذ من الصحراء ملاذا وملجأ من الإرهاب وبطشه، الأمر الذي جعل البعض يربط ظهور الفضاء الصحراوي في الخطاب الروائي الجزائري مع أحداث العنف التي عرفتها الجزائر.

ولكن الملفت أن الروائي " إبراهيم سعدي" لم ير في الصحراء ذلك الملاذ الآمن الذي يبعث على الطمأنينة والسلام من جحيم الإرهاب فحسب، بل وجدها أيضا ملاذا للتطهر من أدران النفس وشوائبها خاصة في روايته " بوح الرجل القادم من الظلام".

1.2 سرديات العنف:

شكل العنف بالنسبة لروايات العشرية السوداء تيمة أساسية ومادة غزيرة لا تنضب، تغترف منها دون هوادة لتصور مجمل الفجائع الإنسانية في الجزائر، فلا تكاد تقع عينك وأنت تقرأ مثل هذه المتون إلا على مشاهد القتل والدم والأشلاء والموت؛ ويعزي كثير من الكتاب أسباب انتشار رواية العنف – بالإضافة إلى الظروف السياسية المتدهورة-يعزونها إلى «غياب الديمقراطية، المظالم اليومية، الصراعات الثقافية، الدينية الذهنية، الدولية ... (إذ أنها) كلها تفرض على الرواية العربية نوعا من العنف بل وتوجهه؛ لذلك من الصعب الحديث عن رواية تقع خارج العنف»3.

وبصرف النظر عن أن العنف مشكلة أزلية لا يزال تناميها يؤرق الإنسان، فإن العنف الذي عرفته الجزائر في التسعينات أو ما يسمى بالإرهاب، كان نموذجا مختلفا قاسيا وبشعا بالقياس إلى وحشية تلك الجرائم وفظاعتها، وبالقياس إلى المدة التي استغرقها أيضا؛ فاندفعت الكثير من النصوص تصور ذاك الواقع الأليم، وتشكل ما يشبه رد فعل مباشر وسريع على بربرية الإرهاب ولاإنسانيته، حتى وصفها البعض بالأدب الاستعجالي.

2.2 العنف يطال الصحراء:

رواية "بوح الرجل القادم من الظلام"4 لإبراهيم سعدي متن من متون العشرية السوداء، أرادها الكاتب أن تنقسم «إلى قصتين متوازيتين تسيران جنبا إلى جنب إلى نقطة تلتقي فيها لحظة التلفظ بلحظة وقوع الحدث»5، فيرتبط ماضي السرد بزمن ما بعد الاستقلال، أما الحاضر فيموقعه الكاتب في قلب سنوات الإرهاب.

تزاوج الرواية بين فضاءي المدينة والصحراء، فالروائي "إبراهيم سعدي" لم يتخذ من الصحراء تيمة أساسية ووحيدة بل كانت الأمكنة ثرية ومتعددة، توحي بالتيه واللااستقرار الذي تعيشه الشخصية البطلة "منصور نعمان"، ولكنه يختار الصحراء في نهاية المطاف ليستقر بها، حيث الجدب والفراغ والوحشة، في شبه انتحار أو عقاب تلحقه الشخصية بنفسها لتكفر عن ذنوبها، فالمدينة تعادل الماضي والإثم والعذاب، أما الصحراء فهي

الحاضر والتوبة والخلاص، وهي بالنسبة لمنصور اختيار وفي نفس الوقت إجبار، طوع وكراهية في الوقت نفسه.

إن الفرار من المدينة واللجوء إلى الصحراء، تيمة تكررت في المخيال الأدبي شعره ونثره، ومردها ذلك النفور والصدام مع المدينة التي لم تعد إلا فضاء لتراكم الهزائم وتكوم الأحزان والإحباطات، في حين أن الصحراء تبعث في النفس شيئا من الراحة والسكينة، وتمنح برحابتها وشساعتها حرية أكبر للشخصيات للتحرك وتحررهم من قيود الفضاءات الضيقة، إلا أنها في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" لا تمنح البطل "منصور نعمان" حرية التحرك والانتقال بقدر ما تمنحه حرية البوح والقول والاعتراف، "فمنصور" لم يكن تائها بين رمال الصحراء وكثبانها، كما حدث مع أبطال روايات "إبراهيم الكوني"، بقدر ما كان تائها في ذاته، يريد أن يلملم نفسه ويجمع بعثرتها، فالصحراء كما المناطق المحرمة لا يدخلها إلا آحاد من المغامرين الذين يجدون فيها السكينة التي يبحثون عنها.

يعيش "منصور" في المدينة كل مغامراته الجنسية مرتحلا بين امرأة وأخرى، وعندما يصحو ضميره، يقرر أن ينفي نفسه إلى مكان بعيد، يجلد بعزلته وقفره نفسه الآثمة إلى أن تتروض وتصفو من ذنوبها، إذ يجد "منصور" في الصحراء «فضاء مثاليا للتحقق تتصالح الذات مع خوفها وأعطابها التي لا سبيل لإصلاحها، وتمارس الوجد على طريقتها، مع انسجام مع جوهر كينونتها.»6

في مدينة " عين ..." التي لا يذكر الكاتب اسمها الكامل، مدينة الفارين والمغضوب عليهم، يعيش هناك " منصور" متوسلا الكتابة والبوح والاستبطان، ويمنح نفسه فرصة تفريغ ما في جعبتها من أوزار وخطايا، لأن الكتابة هي ذلك «الفعل الرمزي الذي يساعد الذات على نسيان الألم»7 لتتمكن من التحرر والانعتاق؛ وهكذا يقوم السرد في الرواية على «الاسترجاع المر لتفاصيل ما حدث من خلال استبطان الذاكرة والأماكن والشخوص، ومع أن التذكر لعبة قاتلة، وسفر مؤلم عبر ذاكرة تشرخها المآسي والجراح.»8، إلا أن راحة

"الحاج منصور" كانت تتوقف على ذلك الاسترجاع الذي سيحقق له السلام الداخلي والاستقرار النفسي.

ولكن الوعي بالحاضر في هذه الرواية والذي ارتبط بفضاء الصحراء، جاء مقترنا بفضاء العشرية السوداء، فبعد لحظات البوح والاعتراف والغوص في أعماق الذاكرة، تجد البطل يستفيق على وقع طارئ خارجي، إما انفجار أو طلقات رصاص أو قرع على الباب ....

يقول "منصور":

«دوي انفجار رهيب يعيدني إلى الحاضر على التو أغادر مكتبي، أرى ضاوية في القاعة تسرع نحوي وعلامات الذعر بادية عليها.

ماذا هناك الحاج؟

قنبلة بدون شك.....

أخيرا أصل إلى جهنم. جثث متفحمة. أجسام ممزقة. أطراف لحم بشرية. دم. صراخ. دخان نار. صبي مضرج الوجه بالدم يبكي ويصرخ: أمي أمي أمي.»9

يستعجل الكاتب في وصف بشاعة المشهد، ويقدم لنا لقطات من هنا وهناك دون توقف على التفاصيل، إلا أنه ولا ريب قد تمكن بسرعة خاطفة «من التعبير عن الانهيار الذي أصاب منظومة القيم في تركيبة الجماعات المسلحة، وكيف انحدرت قيمة الإنسان على يديها إلى الحضيض»10.

ويقول في مشهد آخر يصور فيه انفجار مقهى المنفيين:

«.... لا أحد تصور أنهم سيهلكون حينها عن بكرة أبيهم. انفجار مهول هز المقهى يومذاك. ممزقا أجسادهم. في عمليات إخراجهم من تحت الأنقاض شاركت. لأنني كنت الناجي الوحيد من بينهم. في ذلك اليوم رفعت صخرة كبيرة هوت على الفيلسوف حميدة رمان. فرأيت وجهه ممسوخا. مسحوقا. كما لو أن دبابة مرت عليه. جثة الشاعر فارح قادري المفصول رأسه عن رقبته أو يكاد. أبصرتها محمولة من طرف ثلاثة اشخاص. جسم الصحفي

كمال بقة لم يعثر على كامل أعضائه. كلهم ماتوا في ذلك اليوم؛ القاضي مقران أعراب، مبارك المزغراني، عبد الحق لفقير، وغيرهم من المنفيين. كلهم.»11

وعليه فإن الكاتب "إبراهيم سعدي" يكسر أفق التوقع ويخيب انتظار القارئ، عندما يعلن الصحراء ضحية أخرى لهجمات الإرهابيين ووحشية جرائمهم، الأمر الذي خالف ما كانت تنقله الأخبار والصحف آنذاك، إذ لم تشهد الصحراء تلك الفظاعة والبربرية التي عاشها الشمال الجزائري، وتلك الانفجارات والمجازر الجماعية، ولكن " سعدي" يوهمنا بعكس ذلك، بأن الصحراء لم تكن بمنأى عما كان يحدث في الشمال، من قتل وذبح وتنكيل وسفك للدماء، حتى يموقع البطل في فضاء تراجيدي مظلم تتوالى فيه حلقات الرعب والخوف والقتل، و«يحمل مدينة "عين ..." مهمة إنجاز الدلالة الزمكانية الشاملة لفضاء العشرية السوداء العام، ويكبرها تكبيرا ميكروسكوبيا كاشفا للشرايين العميقة للجسد الوطني المريض.»12

لقد حاول الكاتب إسقاط كل ما كان يحدث في الشمال على الصحراء، فلم يتوقف عند الاغتيالات، والانفجارات، والمجازر الجماعية، بل تعدى ذلك إلى الحديث عن المظاهرات وأشكال الاحتجاج، من حرق ونهب وعنف، يقول:

«سيارات متفحمة وأخرى محطمة. محلات مهشمة ومفرغة. عجلات مطاطية محترقة. شظايا الزجاج وعلب ممزقة ونفايات أخرى مترامية على جوانب الطريق. وسط ذلك متظاهرون يرمون قوات الأمن بالحجارة. عناصر الأمن يردون عليهم بغازات مسيلة للدموع. رائحتها لم تبرح تغمرنا. مختلطة برائحة العجلات المطاطية المحترقة ...»13.

وتتكرر مشاهد الاغتيالات والقتل في الرواية، إلى أن تصل يد الإرهاب إلى انتهاك المقدس واغتيال الأولياء الصالحين وأصحاب الكرامات، ليثبت الإرهاب مرة أخرى أنه ضد الدين ورموزه، أنه ضد القداسة والطهر، أنه ضد الحياة وكفى.

«في ذلك اليوم الذي وجد فيه جسم الصوفي سعيد الحفناوي. مذبوحا، ممزق الأطراف، مندلق الأحشاء، قبته البيضاء محطمة، مضرجة بالدم»14.

لا شك في أن القارئ وهو يقرأ مثل هذه المقاطع، يقف مصدوما أمام تلك البشاعة والوحشية التي يفرزها السرد، قد تفوق البشاعة التي كان يسمعها من أخبار القتل آنذاك، «فالنص الأدبي يفرز عنفه خلال تشكله، لأن النص بنية حية، فهو يتعرض لحالات من الإسقاطات العنيفة التي تمليها أحيانا المكبوتات والمرجآت ويستدعيها نسق النص نفسه لاستكمال جمالياته»15، كما أن النصوص التي تسرد العنف، توظف معجما قاسيا صارخا بالموت والدم، «يعتمد على لغة عارية، تبين عن مدلولاتها بلا التباس ودون أن تلفتنا الدوال إلى حضورها الذاتي، بل تقذف بنا إلى مدلولاتها على الفور، من غير حاجة إلى التشبيهات أو الاستعارات أو المجازات»16؛ إنها لغة لا تنتظر أن تتزين وتتجمل، فالموت يترصد بها.

3. الصحراء المنفى/ الخلاص المعنوي :

يفر "منصور نعمان" من الشمال إلى الجنوب، من المدينة إلى الصحراء، لأنه يرى فيها المكان الأنسب لزجر نفسه الآثمة، التي ما انفكت تشبع نزواتها وترضي شهواتها في علاقات مشبوهة، يصبح الجنس فيها «خاليا من كل معنى روحي، تسيره اللحظة الآنية [.....] وتنطق فيه الغواية ممهدة لذهنية في وضعية خضوع، تثبت حالة ثقل شعوري يسعى إلى الامتلاء الحيواني والإشباع الذي لا يراعي أي بعد حياتي، عدا الاشتعال الشهواني والشراهة الابيقورية»17.

فمن "خالتي وردية إلى مسعودة المطلقة إلى المعلمة كليرردمان، زوجة الضابط، زكية، نسرين شراز وسيلين"، تتحول المرأة عند الشخصية البطلة إلى مجرد جسد طافح بالشبق، كائن لا يتقن إلا الإغراء والغواية، ويتحول معها الجنس إلى «فورة مرضية دائمة الضغط، ودائمة المطالبة بالتنفيس الإلزامي الذي يجعلها تعاني التآكل واللااتزان الراشح بالشناعة والفزع، يقتنصها من راهنها في حمأة من اللعنة والشؤم»18.

بعد مقتل أمه على يد أبيه، ورفض والده مقابلته في السجن ليكشف له عن سبب جريمته، يدخل "منصور" دوامة من الحيرة والتساؤلات التي تثقل كاهله وتصير حياته جحيما، ولما يبلغه خبر انتحار "سيلين" عشيقته التي تركها في فرنسا حين عاد إلى الجزائر

بعد مقتل أمه، وخوفه أيضا من أن يلتقي بمسعودة (إحدى ضحاياه) وهي تتسول بابنه في أحد الشوارع؛ كل هذه الهواجس التي تنبض بالحزن والمرارة تخرج "منصور" من وعيه، وتلقي به في غياهب اليأس والإحباط والموت البطيء، حين تكف الحياة عن احتضانه، فتلفظه كأية قذارة؛ يقول "منصور": «حاولت أن أهرب من نفسي. لكن إلى أين؟ الحانات وحدها فتحت لي صدرها. حانات حقيرة. تعيسة. قذرة. مكتظة على الدوام بالبؤس البشري. أقصدها فور خروجي من العمل وأغادرها وسط الليل. عندما تغلق أبوابها»19، ويقول أيضا: «حانات العاصمة صارت تعرفني كلها تعرف ذاك الشاب الغريب الذي يشرب في صمت ساعات طويلة إلى أن يحين وقت غلق الأبواب. الغارق دوما في تفكير لا ينتهي ...»20، وهكذا يغدو الخمر بالنسبة للشخصية البطلة «تأشيرة رحيلها إلى عوالم أخرى، تنقطع فيها وشائجها مع محيطها، فتعيش خلسة متعة الفرح، ولذة الانتشاء الذي يدنيها من درجة الرضا عن النفس، وهي تتخلص من هيمنة الشعور بالاندحار، الذي لا يبرحها إلا عند نكوص وعيها وتذبذبه»21.

في تلك الأيام يرى "منصور" في منامه حلما، سيغير حياته رأسا على عقب: «أبصرت كائنات ساطعة البياض. تتقدم نحوي في هدوء وصمت. يتقدمها ملاك حاملا كفنا مبسوطا على ذراعيه الممدودتين. حينها أحسست بروحي تفارق جسدي. كما لو أنها تخرج لملاقاة الملائكة التي جاءت لأخذها. في تلك اللحظات عرضت على الله سبحانه وتعالى الصفقة التالية: أن يبقيني على قيد الحياة مقابل أن أعبده إلى آخر يوم من حياتي وأعيش في أشد أرض الله قسوة»22. إنه الحلم الفاصل بين حياة المجون والخلاعة والزنا وحياة التوبة والأوبة والطهر، حين يعزم "منصور" على محاسبة نفسه حسابا عسيرا، فيعكف على مواصلة دراسته في كلية الطب، وأداء صلاته وغض بصره عن النساء، ثم يطلب من صديقه الوحيد صالح "الغمري" أن يساعده على الوفاء بوعده لله عزوجل، ويعينه في "أشد أرض الله قسوة"،

«مدينة لا شيء فيها. غير حرارة تنافس بها نيران جهنم. مدينة لا ضرع فيها ولا زرع. منسية. واقعة خارج الزمن. خارج الحياة وخارج الأمل. في هذه المدينة الواطئة. الصامتة. ذات المنازل المتلاصقة. ذات اللون الأسمر الباهت. العارية والخالية من الأشجار. سوف أقضي حياتي. هنا جئت أبحث عن التوبة. ها أنا ذا إلهي. أفي بعهدي. ها أنا أنزل إلى الجحيم.

سلام عليك " عين ..."

سلام عليك يا مدينة الضالين والتائبين والمنفيين.

سلام عليك من مذنب كبير.»23

لقد توقف السارد في وصفه لهذه المدينة الصحراوية، على تصوير الجانب السلبي في سلسلة الأبعاد والقيم التي تتجمع للصحراء، من دلالات الفقر والجدب والضياع، والعزلة والبداوة والخلاء ... «خلوها من أي حركة. بما في ذلك حركة المرور. بدت لي مهجورة. بلا سكان. بلا حياة. أجل. شعرت كما لو أنني جئت للعيش في مدينة غادرها أهلها؛ غادروها هروبا من كارثة ما. كالمجاعة أو وباء الطاعون ...»24، وتغاضى (السارد) عن جانبها الإيجابي، وما تشتمل عليه «من ظاهرة الاتساع والرحابة، السكينة والهدوء والتأمل والعزلة والفطرة الإنسانية، والبساطة، وهو ما يمزج الاتساع الصحراوي بالرحابة الكونية»25، وهذا الاقتصار في السرد على تلك الصورة القاتمة المظلمة من الصحراء، مرده حال البطل الذي يعيش الانكسار والندم والحسرة، فيقصد الصحراء ليعاقب نفسه لا ليمتعها ويبهجها، ولا غرابة أن نجد الصحراء في الرواية مجللة بقسوتها وجفافها ورهبتها ولا نلفي أية إشارة لجمالها أو كثبانها أو نخيلها، «وهو إذ يعرض جسده لعوامل الصحراء يجد ما يوازن به بين ألمه الداخلي وألمه الخارجي، لهذا السبب فقط اختار الصحراء ليحقق فيها التوازن الذي يحتاجه للاستمرار في العيش»26، إن الصحراء منفى بالنسبة له، فالمنفى ليس «حالة فعلية فحسب، بل هو حالة استعارية أيضا ... هي حالة انعدام التكيف مع المجتمع»27، وسيمنحه هذا المنفى تجربة مغايرة تمكنه من التنفيس عن أحزانه، عندما يلقي بكل تلك المشاعر والعواطف المشؤومة المتكومة في خلده، فتغدو الصحراء مطهرة للروح، واحة مفقودة «لا يعثر عليها إلا التائهون الذين فقدوا الأمل في النجاة، تسقي العطشان والضائع ولا تنقذ إلا من أشرف على الموت»28؛ إن "منصور" يروم "جهنم" الدنيا عله ينجو من "جهنم" الآخرة.

ويمكن أن نمثل لدلالات المدينة والصحراء في رواية "بوح الرجل .." على النحو التالي:

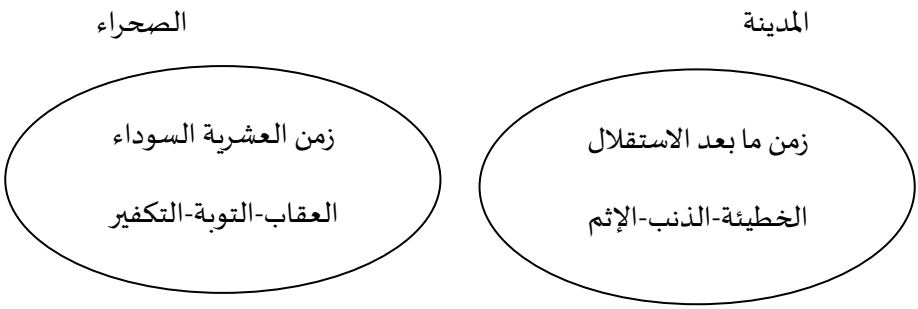

4. الصحراء المنفى/ الملاذ المادي :

تطل علينا الصحراء في رواية "بحثا عن آمال الغبريني"29 للروائي إبراهيم سعدي أيضا، بدلالة أخرى ولو أنها تشترك مع صحراء رواية "بوح الرجل القادم من الظلام"، في كونها المنفى والملاذ إلا أنها في هذه الرواية ستشكل ملاذا ماديا، من همجية الإرهاب في الشمال الجزائري، حين يفر إليها "المهدي المغراني" بعد تعرضه للتهديد بالقتل من طرف الجماعات الإرهابية؛ وتحقق الصحراء للبطل الأمان الذي يرومه، رغم ما كان يحدث فيها من تهريب ودعارة ووباء، وأما أخبار الاغتيالات والمجازر التي تواترت عبر صفحات الرواية، فقد كانت تحدث في الشمال، لتنأى الصحراء -هذه المرة-عن جحيم الإرهاب، رغم ما تلقي به تلك الأخبار من سوداوية على الرواية ككل.

يجعل "إبراهيم سعدي" من الصحراء، ملقى لكل شخصيات روايته، إذ تلتقي كلها في أحد الفنادق، في مدينة تقع في أقصى الجنوب الجزائري، "المهدي المغراني" يمثل شخص المثقف الذي عانى الويلات أثناء العشرية السوداء، "وناس الخضراوي" الأستاذ الجامعي الذي جاء بحثا عن طالبته "آمال"، فلم يعثر عليها ويواصل البحث عنها، إلى أن يهلك في إحدى قرى مالي، أما "موح الشريف" عامل الاستقبال في الفندق، فيهلك هو الآخر بوباء انتشر في الصحراء.

الرواية صورة لمعاناة المثقف الجزائري الذي استهدف من طرف الجماعات المسلحة، وكان ضحية هو الآخر لتلك الاغتيالات والأعمال اللاإنسانية، فقد تعرض الكثير من المثقفين الجزائريين إلى التصفية الجسدية، أو تم تهديدهم بذلك ففروا بجلدهم إلى بلدان أخرى أو

إلى الصحراء كما فعل "مهدي المغراني" في هذه الرواية، لكن هذا المثقف يظل عاجزا حائرا لا يفكر إلا في أشلاء القتلى ودماء الأبرياء التي تسفك ليل نهار، وهو إذ يتتبع أخبار الصحف التي ترصد الوضع في الشمال يصاب بالإحباط واليأس، فيكف عن الإبداع والكتابة ويكتفي بانتظار الموت في صمت، وهو يلج عالم المخدرات، فلا ينتبه إلا وهو يدخن الحشيش ويتعاطى الكوكايين.

إذن هي صورة أخرى للصحراء يمنحنا إياها الكاتب "إبراهيم سعدي" ليست بأكثر حسنا من مثيلتها في رواية "بوح ..."، عالم قاتم قاس موحش ينفتح إلى جانب فراغه ووحشته وجدبه على كل أنواع الممنوعات والتهريب والدعارة والأوبئة، عالم خادع يوهم "المغراني" بأنه يحميه من الموت على يد الإرهابيين، إلا أنه يلقي به بين أنياب المخدرات والدعارة لتقتله بطريقة أخرى قد تكون أقل وحشية.

يلتقي "المغراني" أثناء مكوثه في فندق الجنوب "بوناس الخضراوي" الأستاذ الجامعي الذي جاء باحثا هو الآخر عن أمر فقده، ولكن المفقود هذه المرة ليس الأمان بل هي طالبته التي يبدو أنه يحبها، ويظل باحثا عنها رغم مرضه وتدهور حالته إلى أن يهلك دونها؛ هذه المرأة الحسناء "آمال" التي يعرفها المغراني أيضا، والتي لا يتحقق فعل العثور عليها في الرواية، هي في حقيقتها رمز للوطن الأم، إذ كثيرا ما تماهت في الإبداع الإنساني «صورة المرأة بالأرض المكان وكثيرا ما نظر إلى الأرض / الوطن بوصفها المرأة أو المرأة الحبيبة، أو المرأة على إطلاق المفهوم والدلالات الفياضة بالحب والعطاء والإلهام »30، فيرتبط فضاء الصحراء بالأنثى في "رواية بحثا عن آمال الغبريني"، إذ أنها الوحيدة التي تمتلك القدرة على إضاءة ذاك المكان القاتم وبث الحركة والأمل فيه، وكان حضورها –لا محالة- سيقضي على تلك السكينة والرتابة، ليبث الحياة في مدينة لا تعد إلا بالموت، لأن غياب المرأة عن المكان يعني غياب الروح والحياة عنه، أوليس "كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه"؟؛ لكن هذا كله لم يحدث، وظل غيابها دافعا لاستمرار البحث الذي هو في حقيقته «بحث عن الهوية الضائعة إثر فقدان الوطن وتمزق

الروابط التي تشكل عناصر كينونته وتحدد طبيعة علاقته بالوجود، ففقدان الوطن / أو خسرانه قرين الفاجعة والمأساة»31.

وأما مآل الشخصيات في هذه الرواية من موت "وناس الخضراوي "وإصابة "موح الشريف "بداء السيدا، وخيبة المغراني من جراء كل ما يحدث حوله، ثم قراره العودة إلى الشمال؛ يؤكد أن صورة الصحراء تتقاطع مع فكرة الموت كنهاية متوقعة للضياع والتيه والوحدة والاغتراب.

5. الصحراء وعوالم الصوفية :

توفر الصحراء بخلائها وقفارها جو العزلة والسكينة والتأمل، و«ينقلب الإنسان -في حضرة مارد الصحراء - إلى كائن وحيد بلا ظهير؛ بلا مجتمع يشد أزره»32 فيبعث به هذا الشعور إلى عوالم التأمل والتصوف والزهد، لأن الصحراء فضاء للقداسة والطهارة وهي في حقيقتها «منفى من أجل البحث عن المعرفة والحقيقة، الصحراء بالتالي ليست فراغا بقدر ما هي استعارة معبرة عن العالم والوجود الإنساني برمته»33، كما أنها «مكان لترويض العقل»34 إذ لطالما ارتبطت العزلة عند المتصوفة بالصحاري والجبال والكهوف التي تمنحهم ذاك النقاء والطهر المنشودين، وتمكنهم من الاتصال بالملكوت الأعلى.

والإقبال على التصوف والاستعداد له «ينشأ في العادة من ثورة باطنية تخامر النفوس، فيثور أصحابها على المظالم الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهاد نفسه وإصلاح خطاياه»35، ولهذا فقد وجد الروائيون والشعراء في التصوف ضالتهم المنشودة، ذلك الكمال الذي لم يتحقق لهم في أرض الواقع السحيق الذي ما انفك يصدمهم ويعذبهم، ولم يفتأ "إبراهيم سعدي" في رواياته، يذكر الأولياء الصالحين وأصحاب الكرامات، وإن كان في رواية "بحثا عن آمال الغبريني" يذكر الولي "سيدي بلال" ذكرا عابرا، فإنه في رواية "بوح الرجل ..." يخصص للولي الصالح مساحة أوسع، لأنه السبب في راحة "منصور" من عذاب الذاكرة و جراح الماضي؛ راحة لم تتحقق له رغم كل السبل التي سلكها، فقد حج بيت الله، وفر إلى الصحراء، واعترف بكل آثامه مدونا إياها في كتاب، نصحته زوجته

"ضاوية" بتأليفه، ولكنه عبثا فعل، إلا أن رؤية الولي الصالح "سعيد الحفناوي" كانت بمثابة الترياق لدائه المستعصي، فقد بعثت في نفسه « إحساسا غريبا بالراحة والطمأنينة»36، إحساس اشتاق إليه كثيرا بعد سنوات العذاب والأرق.

فالولي هو الإنسان الذي «تطهرت روحه من دنس الدنيا، فاستقامت سيرته، وخلصت سريرته. وكان عند الناس وجيها، وعند الله مكرما لتقاه وصدق طاعته»37، ولا تتأتى هذه الصفات لأي كان، بل لمن رغب عن الدنيا وأدار لها ظهره وأقبل على الآخرة يعد لها العدة، فكان الأحرى بهذا الإنسان أن يجازى ويُرفع من عالم المادة إلى عالم الروح والبرزخ، لقد «أعطاه الله كل شيء حتى يختبر حبه. أعطى له الدنيا في طبق من ذهب. لهذا كان على سعيد الحفناوي أن يقاوم أكثر من الشيخ مبروك إغراء الدنيا. لكن بفضل إرادته قهر ملذاتها مثلما قهر هذه الأماكن التي لا النبات ولا الحيوان أو البشر أمكنه تذليلها. هو قطع صلته "بعين ..." وبغيرها من المدن. فلم يكسب ولم يرث ولم يتزوج ولم يخلف بنين أو بنات»38، هذا الإعراض عن ملذات الحياة وأهوائها، والتفرغ للانصهار في الذات الإلهية، يتوج صاحبه بكرامات تميزه عن باقي البشر اللاهثين وراء الدنيا الفانية، «صوته أيضا كان مفعما بتلك الطاقة الخفية الباعثة على الإحساس بأننا لا نسمع كلاما بشريا، أو على الأقل صادرا من بني آدم وكفى، بل كلاما آتيا من بعيد، من أعماق ما، من تجربة يكف الإنسان بعدها عن أن يكون مجرد بشر»39.

يجد منصور في الصحراء القاحلة الغارقة في سكون مطبق، ذاك الخلاص الذي بحث عنه طويلا، وجده عند متصوف أدار للدنيا ظهره، فكان معلمه وشيخه «بدا لي وأنا لا أزال أسير خلفه، أتبعه كما يتبع الأعمى اليد التي يهتدي بها في الظلام، غير منشغل إلا بالوصول إلى الصوفي، أنني اهتديت في النهاية إلى الطريق الذي كنت أبحث عنه طوال حياتي من غير أن أدري. الطريق الشاق، القاسي قساوة تلك القفار الملتهبة، المؤدي وحده إلى الخلاص في نهاية المطاف»40، ويصرح منصور أن تلك العزلة وذاك الفراغ والخواء يساعد النفس على الاغتسال من خطاياها: «يحس المرء وهو يغوص في أعماق هذه الأماكن الجدباء

كما لو أنه خلف الدنيا بأسرها. يحس بنفسه خاليا من أي قلق. من أي خوف [.....] هذه الأماكن لها قوة خارقة على تطهير النفس وغسلها»41.

إذن يتحقق فعل التطهير على يد المتصوف العارف "سعيد الحفناوي"، ولا يكون شفاء منصور إلا «باللجوء إلى زاوية بعيدة عن العالم البشري، مقام الواصل الذي يسمح برؤية الواحد الأحد والتوحد به. مرحلة الوجد والفناء في ذات الله مرحلة السعادة الربانية التي لا يصل إليها إلا الخيرون من العباد»42، وهكذا يأخذ الولي الصالح بيد منصور ليصلح ذاك العطب الداخلي ويمنح أخيرا نفسه المعذبة الشعور بالسلام، بعد رحلة أوديبية محفوفة بالمآسي والعذابات.

6. خاتمة :

نستنتج من كل ما سبق أن الروائي "إبراهيم سعدي" اتخذ من الصحراء مسرحا لأحداث روايتي "بوح الرجل القادم من الظلام" و"بحثا عن آمال الغبريني"، وأن كلا من فعلي البوح والبحث في الروايتين، قد ارتبطا بفضاء الصحراء، تفر إليه الشخصيات، فتجد فيه - رغم قساوته وقفره-الملاذ الآمن الذي يسكن الجراح ويلملمها، ويبعث في النفس الشقية المعذبة الأمان الروحي تارة، والأمان المادي -إن صح التعبير-تارة أخرى.

وأما تركيز السارد على الجانب السلبي في وصفه للصحراء بتكرار صفات الوحشة والفراغ والجدب؛ فمرده الحالة النفسية العصيبة التي تمر بها الشخصيات، حالة التيه والاغتراب والانكسار التي تعكس تشيؤ الذات الإنسانية في عالم مفكك متصدع، إلا أن ذاك الخواء سيمنح الصحراء تأشيرة السفر إلى عوالم أكثر طهرا ونقاء، عوالم ارتفعت ونأت عن دنس المدن الخائبة، إنها عوالم الصوفية التي تغتسل فيها الروح من أدرانها وآثامها.

7. الهوامش:

[1] - منى جميات وآخرون، النص الروائي العربي، قراءات في مسارات التغيير وتمثلات الذات، منشورات ألفا للوثائق، ط1 الجزائر، جانفي 2019، ص 140.

[2] - شرف الدين ماجدولين، الفتنة والآخر "أنساق الغيرية في السرد العربي"، منشورات الاختلاف، ط1 الجزائر، 2012، ص 110.

[3] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] - إبراهيم سعدي، بوح الرجل القادم من الظلام، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2002.

[5] - محمد ساري، محنة الكتابة "دراسات نقدية"، منشورات البرزخ، الجزائر، ماي 2007، ص 135/134.

[6]- سامية إدريس، تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية، دراسة في علم اجتماع النص الأدبي، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2015، ص123.

[7] - حسن المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص 51.

[8] - إبراهيم الحجري، الرواية العربية الجديدة، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، سوريا دمشق، 2014، ص 48.

[9] - إبراهيم سعدي، بوح الرجل القادم من الظلام، مصدر سابق، ص 30-31.

[10] - عبد الله شطاح، مدارات الرعب فضاء العنف في رواية العشرية السوداء، دار العباسي يوسف للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 2014، ص 209.

[11] - الرواية، ص 280.

[12] - عبد الله شطاح، مدارات الرعب، مرجع سابق، ص 207.

[13] - الرواية، ص 291.

[14] - الرواية، ص 320.

[15] - الحبيب السايح، عنف النصوص، مساهمة في الملتقى العالمي للرواية المغاربية من سنة 1990 إلى الآن؛ انبثاق مخيال جديد، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC، وهران، د: ط، 2010، ص 92.

[16] - جابر عصفور، المقاومة بالكتابة، قراءة في الرواية المعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2016، ص 146.

[17] - أمينة بن جماعي، الشخصية المنفية في الرواية العربية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، الرويبة، الجزائر، 2017، ص 36.

[18] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[19] - الرواية، ص 211.

[20] - الرواية، ص 213.

[21] - أمينة بن جماعي، الشخصية المنفية في الرواية العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 35.

[22] - الرواية، ص 219-220.

[23] - الرواية، ص 240-241.

[24] - الرواية، ص 241.

[25] - د/ جمال مجناح، شعرية الصحراء في الخيال الفلسطيني مقاربة سيميائية في مكانية الصحراء وخلفياتها الثقافية، مجلة معارف، االعدد التاسع لسنة الخامسة، ديسمبر2010، ص 125.

[26] - سامية إدريس، تمثيل الصراع الرمزي، مرجع سابق، ص 109.

[27] - "المثقفون منفيين: مغتربون وهامشيين"، مجلة الآداب، العدد: 7/6 خاص عن إدوارد سعيد، السنة: 42 يونيو 1994، ص 98، نقلا عن: شرف الدين ماجدولين، الفتنة والآخر، ص 115.

[28] - إبراهيم الكوني، المجوس، الدار الجماهيرية، طرابلس، ودار الآفاق الجديدة، ج1، ط1المغرب 1991، عن: حسن المودن، الرواية والتحليل النصي، مرجع سابق، ص 67.

[29] - إبراهيم سعدي، بحثا عن آمال الغبريني، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر، 2003.

[30] - فاطمة عبد الله الوهيبي، المكان والجسد والقصيدة المواجهة وتجليات الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 21.

[31] - بوشوشة بن جمعة، سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، ط1، 2005، ص 149.

[32] - دليلة زغودي، نداء الملاحم في رواية الصحراء عند إبراهيم الكوني، مجلة الأثر، مركز مغنية الجامعي، العدد 31، جوان 2019، ص 73.

[33] - علال سنقوقة، مخيال الصحراء في روايات إبراهيم الكوني، أطروحة دكتوراه، إشراف واسيني الأعرج، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص 32.

[34] - علال سنقوقة، مخيال الصحراء، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[35] - ماسينيوس ومصطفى عبد الرازق، التصوف، تر: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، ط1/1984، ص 50.

[36] - الرواية، ص 323.

[37] - علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد للطلاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط7، الجزائر، 1991، ص 1346.

[38] - الرواية، ص 317.

[39] - الرواية، ص 324.

[40] - الرواية، ص 323.

[41] - الرواية، ص 315.

[42] - محمد ساري، محنة الكتابة دراسات نقدية، مرجع سابق، ص 137.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊